

## الفصل الخامس عشر الإرادة

حيث إن العقلية ينتهي شوطها طبيعيا ويتجلى في سلوك ظاهر ، فالفصل الأخير في علم النفس ينبغي أن يكون مخصصا للإرادة .

يبد أن كلمة إرادة تستعمل في معناها الواسع ، ومعناها الضيق .

ففي معناها الواسع تدل كلمة ارادة على قدرتنا الكلية على الحياة النشطة المريدة ، والحياة القهرية الجزافية ، بما في ذلك ردود أفعالنا الغريزية ، وتلك الأنماط من السلوك التي أضحت آلية فأنوية وشبيهة باللاواعية بسبب التكرار المتصل الذي يغلب عليها .

وفي معناها الضيق فإن أعمال الإرادة هي تلك التصرفات التي لا يمكن أدائها دون ابتاه .

إذ لابد من وجود فكرة واضحة عن هذه التصرفات وماهيتها ، ثم اتخاذ العقل قرارا مدبرا مع سبق الاصرار قبل الاقدام على تنفيذها .

ومثل هذه التصرفات تتصف غالبا بالتردد وإيمان الفكر ، ويصاحبها شعور — خاص جملة — بالزعم ، شعور قد يحمل معه أو لا يحمل معه شعورا ثانيا بالجهد .

وفي أحاديثي السابقة قلت كثيرا عن اتجاهاتنا القهرية وميولنا الجزافية ، ولذلك سيقصر كلامي في حديثي هذا وما يليه على الإرادة بمعناها الضيق .

لقد اعتبر علماء النفس السابقون أن كل أعمالنا ترجع الى قوة أو طاقة عجيبة خاصة تسمى الإرادة ، لا يتم بدونها قرار يصدر عن سلطتها .

ولقد ظن هؤلاء العلماء أن الأفكار والانطباعات — لكونها بطبيعتها غير ناشطة — أنها لا تستطيع أن تنتج سلوكا الا عن وساطة هذا الوسيط صاحب الهيمنة .

فحتى تمسك بتلاييه وتشدها بفتة — اذا جاز لنا أن نستعمل هذا التشبيه — فلا يمكن لسلوك خارجي أن يحدث .

ولقد ثبت بطلان هذا القانون منذ وقت طويل وذهب مع الريح بكشف ظواهر الفعل المذموم — حيث تنتج الانطباعات — كما تعرفون — حركة مباشرة ومستقلة .

ويمكن اعتبار القانون « منفعرا » أيضا الى المدى الذى تذهب اليه الأفكار .

والحقيقة أنه لا يوجد أى نوع من الوعى على أى نحو ، سواء أكان إحساسا أم شعورا أم فكرة ، لا يتجه مباشرة ومستقلا الى احداث أثر حركى — لا بد وأن يفرز نفسه فى تأثير حركى .

يبد أن الأثر الحركى لا يتحتم أن يكون دائما متجليا فى سلوك ظاهرى خارجى .

فقد يقتصر على تغير فى نبضات القلب أو التنفس أو على تعديل فى توزيع الدم ، كما يحدث فى حمرة الخجل أو صفرة الخوف والجبن .

وقد يتسبب فى افراز الدموع الخ الخ .. ولكنه فى كل الحالات موجود على شكل ما ، ما دام هناك وعى قائم .

وهناك عقيدة أساسية فى علم النفس الحديث أصبحت راسخة ، ومؤكدة مثلها فى ذلك مثل كل العقائد الأخرى الثابتة التى أكدها علم النفس الحديث، قوام هذه العقيدة أن العمليات الواعية من أى نوع — العمليات الواعية

كعمليات واعية فحسب — لا بد وأن تنتقل في حركة سافرة حاسرة أو خفية مقنعة .

وأبسط حالات هذا الاتجاه وأقلها تعقيدا حالة عقل تسيطر عليه فكرة وحيدة فقط .

وإذا كانت هذه الفكرة لموضوع يرتبط بدافع فطري نشط الدافع مباشرة الى الأداء .

وإذا كانت فكرة لحركة حدثت الحركة . مثل هذه الحالة للعمل بسبب فكرة وحيدة قد ميزت من حالات أكثر تعقيدا تسمى الأعمال « الفكرية الحركية » بمعنى أنها نوع من الأداء بدون تصميم سافر أو مجهود .

إن معظم الأعمال الاعتيادية التي تتدرب على أدائها هي من هذا النوع الفكرى الحركى .

فنحن ندرك مثلا أن الباب مفتوح وننهض فنقلقه .

وندرك أن هناك زيبا موجودا في وعاء أماننا فمد يدا ونحمل واحدة منه الى فمنا دون أن تقطع الحديث .

أو عندما نكون مستلقين في الفراش وفجأة نهكر أننا سنتأخر عن موعد الفطور ونهض من فورنا دون مجهود خاص بذله أو تصميم عنيد . كل السبل الراسخة التي تضى فيها حياتنا وتستمر ، وكل الطرائق والعادات ، واللبس والخلع ، والتحيات الخ الخ . كلها تضى وتنفذ على هذا النحو الشبيه بالآلى دون توقف ، وبنجاح وكفاية حيث يكون الغلاف الخارجى جدا لهامش الوعى هو المعنى بها ، في حين تكون البؤرة في شغل شاغل بأشياء أخرى عديدة .

ولكن دعونا نفحص الآن حالة أكثر تعقيدا .

لنفرض أن هناك فكرتين موجودتين في العقل معا ، إحداهما « أ »  
لو مضت الى سبيلها وحدها فانها ستطلق نفسها في أداء أو عمل أو اجراء  
معين ، ولكن الأخرى «ب» توحى بعمل من نوع مختلف أو نتيجة للعمل  
الأولى بحيث اذا تدبرناها وحسبنا أمرها ، فاننا نتراجع عن أدائه .

سيقول لنا علماء النفس الآن ان الفكرة الثانية «ب» ربما تقبض على  
الآثار الحركية للفكرة الأولى ، أو تمتثلها ، أو تكبتها .

واذن فلنخصص موضوع « الكبت » أو « الكف » أو « الكظم » بكلمة  
عامة لكي نجعل هذه الحالة بالذات أكثر وضوحا .

من أعظم الكشوف المثيرة في الفسيولوجي ، ذلك الكشف الذي  
حدث في وقت واحد في فرنسا وألمانيا منذ خمسين سنة وقوامه أن تيارات  
العصب لا تدفع العضلات الى البدء في العمل فحسب ، ولكنها تردع العمل  
الذي يكون قد ابتدأ في الأداء ، أو تحول بينه وبين الحدوث الذي كان  
مقدرا له أن يحدث لولا توقيفها له .

وهكذا ميزوا بين أعصاب الاعتقال والأعصاب الحركية .

إن عصب الرئتين والمعدة مثلا — اذا نبه — فانه يقبض على حركات  
القلب . والعصب المعوي يقبض على حركات الأمعاء اذا كانت قد بدأت  
في الحركة بالفعل .

ولكن سرعان ما بدا أن هذه كانت طريقة محدودة جدا وضيقة للنظر  
الى المسألة ، وأن القبض ليس وظيفة خاصة مقصورة على أعصاب معينة  
مثلا هو وظيفة عامة يستطيع أن يتسبب فيها أى جزء من الجهاز العصبى  
وتؤثر في الأجزاء الأخرى في الظروف الملائمة .

فالمراكز العليا مثلا لها تأثير كابت مستمر على هيجان واثارة المراكز التي تحت ..

إن الأفعال المنعكسة لحيوان أزيل نصفه كليا أو جزئيا تصبح مبالغا فيها .

وكلكم تعرفون ذلك الفعل المنعكس عند الكلاب عندما تحك جنب الحيوان ، فان رجله الخلفية المقابلة للجانب الذي حكته تبدأ في إحداث حركات حكية - عادة في الهواء .

وفي الكلاب التي جدعت أنصافها الكرية تجد أن هذا الفعل المنعكس الحكى لا يتوقف لدرجة أن استمرار الحك يحو الشعر كله المسترسل على جوانبها كما وصفها جولتز Goltz الذي كان أول من سجل تلك الظاهرة .

وفي المتوهين حيث تكون وظائف الانصاف الكرية في حالة خمود لدرجة كبيرة ، فان الدوافع السفلى غير المكبوتة — التي تكبت وتمتقل في الناس الطبيعيين — تعبر عن نفسها بلا ضابط ولا رابط بطرق بالغة القبح .

وأتم تعرفون الى أى حد يطفىء ميل انفعالى عال ميلا انفعاليا واطنا . فالخوف يعتقل الشهوة ويقبض عليها ، والحب الأموى يلغى الخوف ويبطه ، والاحترام يقمع الشهوة ، وما شابه ذلك .

وفي مظاهر السلوك الأكثر عمقا في الحياة الخلقية ، فعندما يثار عند الجزء مثل أعلى يتحرك فجأة بسرعة على نحو عنيف ، فان الأمر يبدو كما لو كان كل ميزان القيم لدوافعنا قد غير توازنه .

عندئذ تتلاشى قوة ميولنا القديمة ، وما كان يبدو مستحيلا منذ برهة

— مستحيلا بسبب كتبها — يصبح الآن ليس ممكنا فقط بل سهلا .

ولقد سميت هذه الظاهرة — وهي تسمية في محلها — « القوة الخاصة للاتعمال العلوى » .

ومن السهل تطبيق فكرة الاعتقال أو الكبت هذه في حالة عمليات اكتسابنا للمثل العليا .

أنا مستلق على الفراش — مثلا — وأفكر في أنه قد حان الوقت لأنهض ، ولكن يجاور هذه الفكرة ويزاملها في عقلى ادراك لبرودة الصباح الشديدة ، ولذة دفء الفراش .

في هذا الموقف تتعطل النتائج الحركية التى تترتب على الفكرة الأولى ، وقد أظل مستلقيا في الفراش لمدة نصف ساعة أو أكثر ، والفكرتان تبتقان أمامى على شكل ورطة أو معضلة — وهى ما نسميها بحالة التردد أو تدبر الأمر .

في حالة كهذه يمكن حسم الأمر والوصول الى قرار بوحدة من الطريقتين التاليتين :

١ — إما أن أتناسى مؤقتا درجة البرودة التى يشير اليها الترمومتر، وعندئذ تتغلب مباشرة فكرة النهوض من الفراش وتؤدى الى تصرف عاجل — فأجد نفسى فجأة قد غادرت الفراش .

٢ — وإما أن أظل معتبرا لدرجة البرودة ، ولكن فكرة واجب النهوض تلح على إلحاحا حادا لدرجة أنها تقرر سلوكى على الرغم من الكبت . وفى هذه الحالة الأخيرة يكون عندى شعور بالمجهود الأخلاقى الناشط ، وأعتبر أنى أدت عملا فاضلا .

إن كل حالات العمل الارادى القائمة على الاختيار بعد تردد وتدبر هى التى يتم ادراكها على هذا النحو الأخير الذى أشرنا اليه . وهكذا ترون أن الارادة — فى معناها الضيق — تحدث عندما يكون هناك عدد من نظم الأفكار المتعارضة وتتوقف على وجود مجال وعى لدينا معقد التركيب .

والطريف فى الأمر الجدير بالملاحظة هو الرقة المتناهية لجهاز الاعتقال أو الكبت أو الصد .

إن فكرة حركية قوية ملحة — فى بؤرة الوعى — قد يتم تحديدها وتصبح هامدة خامدة ، نظرا لوجود فكرة معارضة لها فى منتهى الضعف فى هامش الوعى .

فمثلا — سأرفع سبابتى ثم أغلق عيني وأحاول أن أتصور — تصورا حيويا بقدر الامكان — أنتى أمسك بسدس فى يدي وأنتى أضغط الزناد .

لمنتى أستطيع الآن أن أشعر جيدا باصبعي تهتز وتميل لتسحب فلا تضغط الزناد ، ولو أن اصبعي كانت مربوطة الى جهاز تسجيل الحركات لكشف هذا الجهاز حالة توترها بتسجيل الحركات الابتدائية . ولكنه لا ينعقف فعلا ، وحركة ضغط الزناد لا تتم .

لم لا ؟ .

بكل بساطة .. لأنتى على الرغم من تركيزى فى فكرة الحركة فانتى مع ذلك أدرك الظروف الكلية للتجربة ، وتربض فى مؤخرة عقلى ، أو فى حافظته وهامشه — فى الوقت نفسه — فكرة ملازمة لفكرة الحركة ، وهى أن الحركة لن تحدث .

إن مجرد وجود هذه النية الهامشية ، بدون مجهود أو الحاح أو تركيز ، أو أية تقوية خاصة أو مساندة لها ، تأتي من اتبأهى ، مجرد وجودها يكفى لآحداث الأثر الكابت لها المعتقل للحركة .

وهذا هو السبب فى أن عددا قليلا جدا من الأفكار التى تحوم فى عقولنا هى التى يقدر لها بالفعل أن تنتج نتائجها الحركية .

ولو أن كل خاطر يجول بأذهاننا ، أو خيال يراود عقلنا ، قدر له أن ينتج نتائجها الحركية لأصبحت الحياة نقمة علينا وعبئا ثقيلا لا يطاق .

من الوجهة المجردة فإن قانون الفكر الحركى صحيح ، ولكن من وجهة الواقع المحسوس فإن مجالات وعينا فى حالة دائمة من التقييد بحيث أن الهامش الاعتقالى الكابت يشل حركة المركز معظم الوقت .

فى كل هذا الذى ذكرت فانى أتكلّم كما لو كانت الأفكار لمجرد وجودها أو غيابها هى التى تقرر السلوك . وأنه لا مجال لأى مبدأ نشاط ثالث يتوسط بين الأفكار نفسها من جانب والسلوك من جانب آخر على غرار ذلك الذى نسميه « الإرادة » .

إذا أصابتكم الدهشة من جراء المبادئ المادية أو القدرية التى يبدو أنها تتبع هذا المفهوم فأرجوكم أن تؤجلوا حكمكم مؤقتا . انتظروا حتى تسموا ما سأضيفه الى ما قلته .

وحتى يحين الوقت لآضافة هذه الحقائق أحب أن أقول الآن ان الخضوع لمفهوم آلى للجهاز النفسى يجعل المرء يفرق بسهولة فى صورة قدرية حتمية للحياة الانسانية ، ويبدو مسلك الانسان مجرد حصيلة أو ناتج للأنواع العديدة من الكبت والسلوك القهرى الاندفاعى الجزافى .

فئة شىء واحد — بحكم وجوده — يجعلنا نتصرف ، وثمة شىء آخر يعتقل هذا التصرف ويقسمه .

والمشاعر التي تثار ، والأفكار التي توجد الأشياء وتنبهها ، تميل بنا ذات اليمين وذات الشمال . أما الاثematics فتعقد الأمر تعقيدا كبيرا بآثارها المتبادلة الكابته . فالأعلى يلفى الأدنى : وقد تكتسح الأعلى نفسها .

والحياة في كل ذلك تصبح حياة خلقية حازمة حصيفة ، ولكن العوامل النفسية أو الوكلاء النفسيين في هذه المسرحية لا يمكن وصفها كما ترون — بأى شيء — سوى أنها « الأفكار » نفسها ، أفكار للجهاز أو النظام برمته بحيث إن ما نسميه « روحا » أو « خلقا » أو إرادة للفرد ليس شيئا سوى أنها اجماليا وكما قال هيوم Hume : ان الأفكار هي نفسها المثلون والمسرح وخشبة المسرح والمتفرجون والمسرحية . هذا هو ما يسمى بعلم النفس الترابطى متجليا في تعبيره الأصلي الجذرى .

ولا فائدة ترجى من تجاهل قوته واغفالها كمفهوم . ومثل كل المفاهيم عندما تكتمل لها أسباب الوضوح والحيوية الكافية ، فإن هذا المفهوم يجنح بقوته الى فرض نفسه على العقيدة .

وعلماء النفس الذين أشربوا علم البيولوجى ومارسوه يتخذون عادة هذا المفهوم على اعتبار أنه القول الفصل وكلمة العلم الأخيرة التي لا معقب لحكمها على الموضوع .

ولا أحد يستطيع أن تكون لديه فكرة كافية وافية عن النظرية النفسية الحديثة ما لم يكن قد أدرك في وقت ما وجهة النظر هذه بما لها من قوة هائلة في بساطتها .

فلنداعبها هنية ؛ لأن لها مزايا لا يستهان بها من ناحية العرض .

إن العمل الارادى اذن هو في كل الأوقات حاصل مركب اندفاعاتنا مع زواجرنا .

ويترتب على ذلك — مباشرة أن يكون هناك نوعان من الإرادة ،  
تسيطر في أحدهما الاندفاعات ، وتسيطر في الثاني الزواج .  
ونستطيع أن نتحدث عنها — إذا شئتم — كالإرادة المتهورة المعجلة ،  
والإرادة المعوقة أو المعطلة .

وعندما يكتمل لكل نوع منهما إفرازه على نحو صريح فأمرهما معروف  
لكل منا .

والحالة المتطرفة للإرادة المتهورة المعجلة هي حالة الهوس — حيث  
تنطلق أفكار المهووس الى « عمل » بسرعة كبيرة وتندفع العمليات الترابطية  
بحيوية فائقة عن الحد بحيث لا تستطيع الزواج أن تلحق بها ويتأخر وقت  
وصولها لدرجة أنه يقول ويفعل أى شيء ينفجر في رأسه دون أية مهلة  
للتردد .

وبعض المرضى باللوثة ( الملائخوليا ) يمدوتنا بالمثل المتطرف للنوع  
الفائق الحد في الكبت واعتقال « الإرادة » وزجرها .

فمقولهم تطبق عليها كلابات من انفعال ثابت بالمعجز والخوف ،  
وأفكارهم تمنقل في اسار فكرة واحدة قوامها أن الحياة مستحيلة عليهم .  
لذلك يصبحون في حالة « ابوليا » تامة *Abulia* وهي المعجز التام عن الإرادة  
أو التصرف لدرجة أنهم لا يستطيعون تغير وضعهم أو كلامهم ويمجزون  
عن تنفيذ أبسط الأوامر .

إن الأجناس المختلفة للناس تفصح عن أمزجة مختلفة في هذا الصدد .  
فالأجناس الجنوبية تمعد عموماً أكثر الأجناس اندفاعاً وتهوراً .

والجنس الانجليزي — خصوصاً فرع انجلترا الجديدة الذي تفرع  
منه — من المفروض أنه وخيم سقيم بألوان الكبت والزواج وصنوف

الوعى الموق ، وأنه قد قضى عليه أن يعبر عن نفسه بوساطة آجام كيفية من العوائق والعلائق والتردد والاحتراس والارتباب .

على أن أعلى أنواع السلوك والخلق — من الناحية المجردة — هي التي تزخر بالزواجر والعوائق . فالعقل عتقال كما يقولون .

ولكن العمل — في مثل هذا النوع من الخلق — يكون أبعد ما يكون عن الاتصاف بكونه مشلولاً ، انه ليس مشلولاً ولكنه ينجح في المضي في طريقه بنشاط . فأحياناً يتغلب على المقاومات ، وأحياناً يشق له طريقاً حيث تكون الزواجر والمقاومات والعوائق ضئيلة نحيلة .

فكما أن عضلات المد عندنا تؤدي وظائفها على أكمل وجه عندما يحدث اقْباض في الوقت نفسه لعضلات الشنى يوجهها ويثبتها ، فكذلك الأمر بالقياس الى الذى له عقل بمجالات وعى معقدة ، والذى يرى أسباب العمل ، والأسباب المضادة لها ، ومع ذلك بدلا من أن يكون معلوجاً فانه يتصرف بالطريقة التى تدخل المجال كله فى الاعتبار .

لذلك أقول لكم ان هذا النوع من العقل هو النوع المثالى الذى ينبغى أن نحاول تناسله والاكثر منه فى طلابنا ؛ هذا من جهة — ومن جهة أخرى فان العمل الاندفاعى التهورى البحت ، أو العمل الذى يمضى الى أقصى الطرف الآخر دون اعتبار للعواقب ، هو أسهل أنواع العمل فى الدنيا وأحطها نمطا .

إن أى فرد يستطيع أن يأتى نشاطا حينما يجمله غير مبال بالعواقب .

إن الحاكم المطلق فى الشرق لا يحتاج الا الى أقل القدرة . وما دام هو يمشى فهو ينجح ؛ لأنه يمضى الى غاية على الاطلاق . وعندما يضيق صدر الدنيا به ولا تطيق احتمال أهواله أكثر من ذلك ، فمصيره المحتوم هو الاغتيال .

أما عدم المضي المباشر الى نهاية الطرف الآخر ، بأن تكون قادرا على التصرف بنشاط في أى عدد من الزواجر ، فهذا أمر نادر وصب حقا .

ان كاقور — عندما حَرَّض على اعلان الأحكام العرفية سنة ١٨٥٩ — رفض أن يفعل ذلك قائلا : « ان أى حاكم يستطيع أن يحكم بهذه الطريقة — أما أنا فساكون دستوريا » .

ان مرسى: قواعدكم الدستورية : لنكولن Lincoln ، جلاستون Gladstone هذان هما أقوى أنواع الرجال؛ لأنها يحزان نتائج ، وينجزان أعمالا ، في أقسى الظروف الممكنة ، وأشد المشكلات تعقيدا .

اننا نعصد نابليون غفرتا مهولا لا يدانيه أحد في قوة الارادة . وحقيقة لقد كان كذلك ، ولكن من وجهة نظر الجهاز السيكولوجي ، فمن الصب أن تقول انه كان هو أوجلاستون الذى يتمتع بقسط أكبر من الارادة .

لأن نابليون كان يسقط من حسابه كل الزواجر العادية ، أما جلاستون فعلى الرغم من تحمسه الشديد كان يقدرها ويزنها ويعتبرها في حسابه في كل عمل يأتيه أو يدعه من أعمال الحكم .

ومن الأمثلة المألوفة لقوة التردد والارتباب على شكل صاحبها هو الأثر الكابت للذمة على المحادثة .

ولا يوجد مكان في العالم ازدهرت فيه المحادثة بكل ما فيها من تألق وروعة كما حدث في فرنسا في أثناء القرن الماضى .

بيد أننا لو قرأنا التراجم الفرنسية القديمة لرأينا كم من فرامل التردد والارتباب الكثيرة التى تعقل ألسنتنا اليوم كانت قد أزيلت وقتئذ .

وحيث يجد الكذب والاتحال والفحش والخيانة والنميمة مجالا للتمبير بلا سدود ولا قيود فان الحديث قد يكون بهيا حقا . ولكن بهاء

وبريقه يخبوان عندما يخاط العقل من اوله الى آخره بخيوط الخوف من مخالفة اللياقة الخلقية والاجتماعية والنكت بها .

ان المعلم كثيرا ما يواجه في قاعة الدرس نوعا شاذا من الارادة نستطيع أن نسميه « الارادة المعوقة » .

فبعض الأطفال — اذا لم يفلحوا في أداء شيء معين مباشرة — ظلوا معوقين كليا بالنسبة له ، ويصبح من المستحيل عليهم أن يفهموه إذا كان مسألة فكرية ، أو يعقلوه اذا كان مسألة عملية ما استمرت هذه الحالة المعوقة .

مثل هؤلاء الأطفال يعاملون عادة معاملة المذنبين ويعاقبون أو تأخذ المعلم العزبة بالارادة فيضع ارادته قبال ارادة الطالب — نقرة بنقرة — ليرى لمن ستكون الغلبة . واذا كان لا بد من ارادة أحدهما أن تكسر فلتكن إرادة الطالب .

« اكسر إرادة طفلك حتى لا تميتهما » . هذا ما كتبه جون ويزلي  
John Wesley  
ثم أضاف الى ذلك :

« اكسر إرادته بمجرد أن يصبح قادرا على الكلام بوضوح ، أو حتى قبل أن يصبح قادرا على الكلام اطلاقا . أجبره على أن يفعل ما يؤمر به حتى اذا اضطررك الأمر الى أن تجلده عشر مرات سويا . اكسر إرادته لكي تعيش روحه » .

هذا الكسر للارادة هو دائما مسرح لمقدار كبير من الارهاق العصبي للطرفين ، وحالة سيئة من الشعور المتخلف عنه .

أما الانتصار فليس دائما من نصيب كاسر الارادة .

وعندما يتطور موقف من هذا النوع الى نهاية شوطه ، ويصبح الطفل

قلقا ومهتاجا باطنيا ، فمن الأوفق للمعلم في تسع عشرة حالة من عشرين أن يدرك الحالة على أساس أنها حالة اختلال عصبي ، بدلا من اعتبارها ذنبا أخلاقيا يستحق اللوم أو التقييع أو العقاب .

ما دام الشعور الزاجر الكابت بالاستحالة يظل قائما في عقل الطفل فسيستمر عاجزا عن اجتياز العائق .

وينبغي أن يتركز هدف المعلم عندئذ في جعل الطفل ينسى ذلك وحسب . أسقط من حسابك الموضوع أو المادة التي تريد له أن يتعلمها — مؤقتا — ثم حول عقله الى شيء آخر ، ثم عد بالطالب ثانيا عن طريق مسار دورى من الترابط ، واطرح عليه المادة ثانية قبل أن يكون عنده الوقت للتعرف عليها والاجفال منها ، ومن المرجح أنه سيجتازها بدون صعوبة .

ألستا تغلب على المحالة نفسها في الحصان بالطريقة نفسها ؟

اننا نحول انتباهه ، ثم نفعل شيئا حيا لا أنه أو أذنه ، ثم ندور به دورة ، ثم ننسب به الى المكان الذى كان يستحيل عليه اجتيازه لو أننا ألهبنا ظهره بالسوط .

على أن المعلم الحصيف لن يفلت الموقف من يده أبدا ولن يسمح لمثل هذه المواقف الزاخرة بالتوتر — بأن تطفح كالبحور .

لملكم تدركون الآن يا اخوانى ما هو واجبكم العام ، أو واجبكم المجرى كمتعلمين .

فعلى الرغم من أنه يجب عليكم أن تولدوا في طلابكم ذخيرة كبيرة من الأفكار فانه يتحتم عليكم أن تتلافوا مغبة الشلل ، أو اعتياد التردد ، أو التوجس في نفوس طلابكم . زدوهم بالأفكار بشرط ألا يترتب عليها توتر ، أو شلل لارادتهم ، أو اعتقال لقواهم الناشطة .

إن علم النفس يستطيع أن يبين لكم المشكلة ويفسرها ، ولكن علم النفس عاجز عن مدكم بالعناصر اللازمة لحلها العملى .

وقبل كل شيء ، وفوق كل شيء ، وبعد كل شيء ، ومهما بذلت من جهد ، فهناك حقيقة لا مفر منها ، وهى أن النتيجة النهائية تتوقف — أكثر من أى شيء آخر — على نعمة فطرية خاصة ، أو مزاج معين فى التركيب النفسى للطالب .

فهناك أشخاص يبدو أن لديهم ضعفا طبيعيا فى التركيز فى مجال وعيهم ؛ مثل هؤلاء الأشخاص بطيئون فى التصرف والأداء ويستجيبون لدواعى الكبت والازدجار بكل سهولة ، فتمكن منهم ، وتسלט عليهم بشكل عجيب . ولكن دعونا الآن نختم هذا الموضوع بأن نتمن قليلا وعن كتب فى مسألة تربية الارادة :

إن مهمتكم هى بناء خلق فى طلابكم . والخلق أو المسلك — كما قلت مرارا وتكرارا — يتكون من مجموعة منظمة من عادات رد فعل تشكل على نسق خاص .

ولكن متى تتكون عادات رد الفعل هذه نفسها ؟

انها تتكون من ميول أو اتجاهات للتصرف على نسق معين عندما تملكنا أفكار معينة ، وللأحجام عن التصرف عندما تقع تحت تأثير أفكار أخرى . واذن فعاداتنا الارادية تتوقف أولا على ما لدينا من ذخيرة فكرية . وثانيا على مزاجتنا المعتادة للأفكار العديدة بالعمل أو بعدم العمل — كل على حدة .

ولكن كيف تكون الحال عندما يعرض لك بديل للاختيار وتكون غير متأكد مما يتعين عليك عمله ؟

إنك تتردد أولا ثم تفوض أمرك وتصمم بعد ذلك . وممّ يتكون تصميمك أو عزمك ؟

انه يتكون من محاولتك لادراك الحالة تباعا بعدد من الأفكار المختلفة التي يبدو أنها تلائمها على نحو ما حتى توفق أخيرا الى إصابة فكرة تبدو أنها تلائم الحالة القائمة تماما .

فاذا فرض أن كانت هذه الفكرة من النوع الذي اعتدت أنت أن تستجيب لدواعيها فتحفزك على العمل لأنها تلتحم في مقومات سلوكك الايجابي وقواعده ، فانك تمضى في إنفاذها بلا تردد وتنصرف على الفور . ولكن إذا كانت الفكرة من النوع الذي اعتدت ألا تستجيب لدواعيها ، وكانت تسيجتها معك دائما الاحجام عن التصرف — لأنها فكرة تتحالف عندك مع دواعي الكبت والازديجار فيك — فانك عندئذ تحجم بلا تردد . فالمشكلة اذن — كما ترون — هي ايجاد الفكرة الصحيحة ، أو المفهوم الملائم للحالة .

هذا البحث عن الفكرة الصحيحة أو المفهوم الملائم قد يتطلب أياما أو أسابيع .

ولقد تكلمت كما لو أن العمل يهون بمجرد أن نجد المفهوم وكثيرا ما يكون هذا هكذا ، ولكن قد يحدث العكس ، وعندئذ — عندما يكون الأمر على العكس — نجد أنفسنا في مركز بؤرة موقف أخلاقي . وأرجوكم أن تتمعنوا فيها ممي جميعا الآن ..

إن المفهوم الملائم ، أو الرأس الصحيح للتصنيف ، الذي تتدرج تحته الفكرة قد يكون صعب المنال ، أو قد يكون واحدا من تلك المفاهيم التي لم يسبق لنا أن كونا معها عادات راسخة للعمل بمقتضاه .

أو ربما يكون العمل الذى يحفزنا المفهوم على أدائه خطيرا وصعبا .  
أو قد يبدو الاحجام عن التصرف جامدا ميتا وسليبا باردا في الوقت  
الذى يكون شعورنا الاندفاعى حارا .

وفي أى من تلك الحالات الأخيرة فمن الصعب أن نمسك بزمام الفكرة  
الصحيحة الملائمة إمساكا كافيا أمام اتبائها لنسمح لها بأن تحدث آثارها  
الكافية الكاملة .

وسواء أكانت دافعة باعثة منشطة أم كابثة قابضة مثبطة ، فهى بالنسبة  
لنا منطقية جدا — ولذلك يجنح بنا انعطافنا الغريزى ويميل بنا الهوى  
الى طردها من اعتبارنا ونجفل من التفكير فيها . انها تلمع ولا تلبث أن  
تنطفىء فى اللحظة التى تظهر فيها فى هامش وعينا ، ونحتاج الى بذل جهد  
جبار من الانتباه الارادى لكى نسحبها الى بؤرة المجال ونبقها هناك مدة  
كافية لتحدث آثارها الترابطية والحركية .

وكل منا يعرف جيدا كيف ينسحب العقل ، ويتحاشى النظر فى الاعتبارات  
المضادة لحالة الشعور السائدة التى تتحكم فيه عندئذ .

ولكن ما إن تدخل بهذه الطريقة الى مركز مجال الوعي — وتبقى هناك  
— حتى تحدث الفكرة آثارها حتما ، لأن قوانين الترابط بين وعينا وجهازنا  
العصبى تمدها بالعمل أو الأداء الذى يحدث عندئذ .

ومجهودنا الأخلاقى — وهى تسمية فى محلها — ينتهى بامساكنا بالفكرة  
المناسبة ، والاصرار عليها ، والعض عليها بالنواجذ .

فاذا سئلت اذن : « مم يتكون العمل الخلقى — عندما يتبلور فى أبسط  
أشكاله الأولية ؟ » فعندك اجابة واحدة لا غير ، وهى أن تقول انه يتكون  
من مجهود الانتباه الذى تتمسك فيه بفكرة فى اصرار ونعص عليها بالنواجذ ،

والتي لولا بذل هذا الجهد الموصول من الاتباه لطردتها من عقولنا الاتجاهات والميول النفسية الأخرى الموجودة فيها .

وموجز القول أن التفكير هو سر الارادة ، كما هو سر الذاكرة .

ويبدو لنا هذا واضحا جدا في نوع المعاذير التي كثيرا ما نسمعها من أولئك الأشخاص الذين يجدون أنفسهم تجابه وجها من أوجه سلوكهم زاخرا بالذنب ومفصما بالايذاء .

يقول الواحد منهم : « لم أفكر أبدا ، لم يدر بخلدى قط الى أى حد كان عملى دنيئا ، ما فكرت قط فى هذه النتائج الكريهة القبيحة الشائنة » .  
وبماذا نرد عليهم عندما يقولون ذلك ؟

افنا نقول : « ولماذا لم تفكر ؟ وما جدواك بلا تفكير ؟ ولماذا أفنت هناك الا لتفكر ؟ » .

ثم تتلو عليهم محاضرة خلقية عن انعدام التأمل والتفكير لديهم .  
إن المثل الدارج للتصميم الخلقى الارادى هو حالة السكر المدمن تحت ضغط الاغراء والاغواء . لقد عقد العزم على التوبة ، ولكن زجاجة الخمر الماثلة أمامه تغريه وتغويه مرة ثانية .

إن انتصاره أو فشله الأخلاقى يتكون من ايجاده للاسم الملائم الصحيح للحالة .

فاذا قال إنها حالة عدم تضييع واتلاف لخرم جيدة قد تم سكبها فى الكأس ، أو إنها حالة عدم فظاظة أو عدم لياقة اجتماعية عندما تكون بين أصدقائك من الشاربين ، أو حالة دراسة أخيرة لتذوق فروع جديد من الويسكى لم يسبق له أن شربه ، أو حالة الاحتفاء بمناسبة قومية ، أو حالة

إنعاش وتقوية لنفسه لكي يكون أكثر عزيمة وتصميما و ارادة على اتخاذ قرار الحرمان من الخمر — بشكل لم يسبق له مثيل في العزم والتصميم — فهو ضائع لا محالة .

أن اختياره للاسم الخاطيء يختم على مصيره ويسلمه الى الضياع .  
ولكن اذا تثبت — دون تذبذب أو ميل أو هوى — بالاسم البيء ( الصحيح الحقيقى ) وأدرك الحالة على أنها حالة سكير مدمن — سكير مدمن — سكير مدمن — وعلى الرغم من كل الأسماء الحلوة الصارخة التى يزودها بها خياله المتعطش للخمر ، فعندئذ يثبت قدمه برسوخ على أول طريق الخلاص .

لقد أخذ نفسه بأن فكر تفكيراً سليماً .

وهذه هى الطريقة التى تنقذون بها طلابكم ..

أولاً — بذخيرة الأفكار التى تزودونهم بها .

ثانياً — بكمية الانتباه الارادى الذى يستطيعون بذله وتوجيهه للتشبث بالأفكار الصحيحة مهما تكن غير سائفة .

ثالثاً — بتكوين العادات المتنوعة الكثيرة التى تمكنهم من التصرف طبقاً لهذه الأفكار التى دربوا عليها ومارسوها بنجاح .

وفى ذلك كله فان قوة الانتباه الارادية هى ركيزة السبيل برمتها ، ويتوقف عليها مصيرنا الأخلاقى كله .

تذكرون — عندما كنا نتحدث عن موضوع الانتباه — أننا عرفنا الى أى حد تكون أعمالنا بالانتباه الارادى أكثر تقطعا وقصراً مما تفترض فيها عادة .

ولو قدر لنا أن نجتمعها معا لوجدنا أن الوقت الذى تشغله لن يعطى  
الإجزاء ضئيلا جدا من حياتنا بحيث يصعب علينا تصديق ذلك .

ولكنى قلت أيضا — ولعلمكم تذكرون ذلك — أن قصرها أو اختصار  
مدتها ليس نسبيا بالقياس الى أهميتها . ولقد وعدتكم بأن أعود الى معالجة  
هذا الموضوع مرة أخرى وهأنذا أنجز لكم وعدى .

ليس حجم الشئ وحده هو الذى يشكل أهميته ، ان وضعه فى الجهاز  
الذى ينتمى اليه أو مكاتته فيه هى التى تحدد أهميته .

إن أعمال الانتباه الارادى عندنا — على الرغم من كونها قصيرة وتم  
على نوبات متباعدة — فانها حاسمة وفاصلة وحرجة فى تقرير مصائرنا علوا  
أو انخفاضا ، الى أعلى عليين ، أو الى أسفل سافلين .

لذلك ينبغى أن يعد تدريب الانتباه الارادى فى قاعة الدرس من أهم  
مجالات الممارسة والتدريب والتعود التى تتم فيه . والمعلم الممتاز العظيم  
هو الذى يهيمى الفرص المواتية الزاخرة بأسباب ودواعى ومجالات هذه  
الممارسة بما فيه من بصيرة وبعد نظر وقدرة على إثارة الاهتمام والشغف  
عند طلابه ، مع تنويع هذه الاهتمامات بحيث تلاقى الفروق الفردية عندهم .  
وأعتقد أنكم تقدر هذه المسألة حق قدرها وتفسحون لها فى نفوسكم  
أوسع رحاب دون أن تضطرونى الى مزيد من الشرح والبيان .

لقد اتهمت بأننى وضعت نصب أعينكم طوال هذه الأحاديث نظرية  
للعقل آلية ومادية .

لقد سميت جهازا عضويا وآلة .

وتحدثت عن رد فعله جبال البيئة على أنه الأمر الحتمى فيه ، وأرجعت  
ذلك صراحة أو ضمنا الى تركيب الجهاز العصبى . ولقد تلقيت من بعضكم

— نتيجة لذلك — التماسات تطلبون منى فيها أن أكون أكثر تصرّحا ومجاهرة في معالجة هذه النقطة ، وأن أدعكم تعرفون بصراحة اذا ما كنت ماديا بالتتمام والكمال أم لا .

إنتى أرغب أن أكون فى هذه المحاضرات عمليا ومفيدا بالتتمام ، وأن أتحدى كل التعقيدات النظرية الفلسفية . ومع ذلك فلا أريد أن أترك أى ابهام أو لبس يتعلق بموقفى .

لذلك سأقول — لكى أتلافى مغبة إساءة فهمى — إنتى لا أعد نفسى فى أى معنى من المعانى — ماديا .

يبد أننى لا أستطيع أن أثبت كيف يمكن لشيء كوعينا — أن ينتجه جهاز عصبى — ولكننى أستطيع أن أثبت تماما أنه اذا كانت « الأفكار » تصاحب أعمال الجهاز واجراءاته وأداءه فان نظام الأفكار يتبع تماما نظام عمليات الآلة .

ان ترابطات أفكارنا المعتادة ، ومسالك تفكيرنا ، وتسلسل أفعالنا ، يمكن أن تكون كذلك نتائج لتتابع التيارات فى أجهزتنا العصبية .

وذخيرة الأفكار الممكنة ، التى يتعين على روح الانسان الحرة أن تختار منها ، ربما تعتمد فقط على القوى الفطرية والمكتسبة لمخه .

لو أن الأمر انتهى عند هذا الحد لاتخذنا المفهوم القدرى الذى شرحتة لكم منذ فترة قصيرة مضت ، وعندئذ تقرر تيارات المخ وتحدد أفكارنا ، وتخضع تيارات المخ بدورها لقوانين آلية بحتة .

ولكن — بعد ما استبان لنا بوضوح وأمطنا عنه اللثام ، وكشفنا عنه النقاب لتونا — ألا وهو الدور الذى يؤديه الاتباء الارادى الاختيارى — فى الارادة — فان الاعتقاد فى الارادة الحرة والتعليل الروحى البحث ازالا مفتوحين أمامنا .

ان فترة مكث وكمية هذا الاتباه يبدوان — في نطاق حدود معينة — غير قابلتين للتحديد والجزم .

فنحن نשמع كما لو كنا قادرين حقا على زيادتها أو إتقاصها ، وكما لو كان تصرفنا الحر في هذا الصدد كان نقطة أصلية في طبيعته — نقطة يتوقف عليها مصيرنا ومصير غيرنا .

إن كل مسألة الارادة الحرة تركز نفسها اذن في هذه النقطة الصغيرة نفسها :

« هل ظهور عدم التحديد أو الجزم عند هذه النقطة و«هم» — أم لا ؟ » .  
ومن الواضح أنه لا يمكن البت في هذا السؤال الا بالتشبيهات العامة فحسب ، وليس بالملاحظات الدقيقة الصحيحة المضبوطة .  
إن المرید الحر يعتقد أن ظهورها حقيقة ، والقدرى يعتقد أن ظهورها و«هم» .

أما أنا فأفحاز الى جانب المریدين الأحرار ، ليس لأننى لا أستطيع أن أدرك النظرية القدرية بوضوح ، أو لإخفاقي في فهم أسانيدھا الزاعقة بالتصديق ولكن — بكل بساطة — لأنه اذا كانت الارادة الحرة حقيقة فمن السخف أن يعتقد أنها قدر مفروض علينا أن نتقبله بالقوة .

فاذا اعتبرنا الملاءمة الباطنية للأشياء ، فأولى بنا أن نعتقد أن أول عمل بالذات يصدر عن إرادة حرة هو أن يساند العقيدة في الحرية نفسها .

وبناء عليه فاننى أعتقد بحرية في حريتى . وأنا أفعل ذلك بأحسن الضمائر العلمية ، عالما بأن التحديد السابق لكمية مجهودى في الاتباه لا يمكن أن يلقى برهانا موضوعيا . وآملا — سواء عليكم اتبعتمونى أم لا — أنها تجعلكم ترون أن مثل تلك النظريات السكولوجية

والسيكوجسسية التي أو من بها لا تكتره بالضرورة الرجل منا على أن يكون قدريا أو ماديا بالقوة .

اسمحو لى الآن أن أقول كلمة أخرى أخيرة عن الارادة ، ومن ثم أختم هذا الموضوع الهام ، وأختم هذه المحاضرات :  
هناك نوعان من الارادة .

وهناك أيضا نوعان من الكف أو التعطيل يمكن أن نسميهما كما بالكبت أو السلب ، وكما أو تعطيلًا بالابدال .

والفرق بين الاثنين هو أنه في حالة الكف بالكبت فان كلتا الفكرة الكتابة والفكرة المكبوتة — الفكرة الاندفاعية والفكرة التي تمتقلها وتسلبها — تظلان معا متلازمتين في الوعي ، منتجتين نوعا معينا من القلق الباطنى أو التوتر ، أما في حالة الكف بالابدال فان الفكرة الكتابة أو المعطلة تبنى كليا الفكرة التي تكبتها فتتلاشى بسرعة من المجال .

فمثلا عندك مجموعة من الطلاب أذهانهم شاردة ، وهم يستمعون لصوت خارج النافذة سرعان با يثير شغفهم واهتمامهم بحيث يتطلب انتباههم كله .

وتستطيع أن تستدعى هذا الانتباه ثانية ، بأن تصرخ فيهم ألا يستمعوا لتلك الأصوات ، وأن يركزوا عقولهم في الكتب التي أمامهم أو فيما تقوله لهم .

ثم تراقبهم بعينك الحادة بحيث يظنون واعين . في هذه الحالة قد تصل الى نتيجة من نوع ردىء ، لأنك في اللحظة التي تغفل فيها عن مراقبتهم بعينك الحادة أو تتراخى رقابتك عليهم فان الجلبة الجذابة التي تظل دائما تداعب حب استطلاعهم سوف تغلبهم على أمرهم ، ثم يبدأون ثانية من حيث انتهوا «وكأننا يابدروا لا رحنا ولا جينا»...

ولكن اذا كنت تفتح جبهة ثانية لاجتذابهم وإثارة شغفهم — دون أن تنبس بحرف عن جلبه الشارع — بأن تبدأ في حديث طلى شهى لهم ، أو تقوم بمرض أو اثبات ، أو شرح لهم يسلب لبهم ويقيد أبصارهم ويشنف آذانهم ، فانهم يسون عادة التشتت كلية ، ويتابمونك في رفق ويسر دون أى جهد ، ويمضون معك الى غايتك .

ان هناك اهتمامات كثيرة لا يمكن كنها أو كبتها أو اعتقالها بالتسليب . فالرجل الفارق الى أذنيه في الحب يستحيل عليه بأى مجهود للارادة أن يلقى شهوته وهواه ، ولكن « دع نجمة أخرى تسبح في مداره » وسيتوقف للمبود الأول — مباشرة — عن شغل عقله وابتلاعه .

فمن الواضح أنه يتعين علينا أن نستخدم طريقة الكف بالابدال كلما استطعنا الى ذلك سبيلا .

إن ذلك الذى تتركز حياته على كلمة « لا » ويقول الحق ، لأن الكذب شر ، ويظل في صراع دائم مع ما فيه من ميل وهوى وصبو الى الحق والدفاءة والجبن ، يعد من كل ناحية في وضع دون ما يمكن أن يكون عليه لو أن حب الحق والتسامح ملكا عليه نفسه ايجابيا منذ البداية ولم يشمر أصلا بأية غوايات أو أهواء دنيئة .

إن الرجل الذى يولد « جنتلانا » هو بالتأكيد — من وجهة نظر تحقيق أغراض هذه الحياة الدنيا — انسان أكثر قيمة من ذلك « التدم المتزمت بمقاومته القبعة للوسواس الخناس » حتى ولو كان في نظر الله — كما يقول علماء اللاهوت الكاثوليك — قد استطاع أن يجمع خزائن الجزاء الأوفى والثواب الأبقى .

لقد سجل سبينوزا Spinoza — منذ زمان طويل في كتابه « الأخلاق »

أن أى شيء يتجنبه المرء بتأثير فكرة أنه شر ، فقد يتجنبه أيضا تحت فكرة أن شيئا آخر خير .

ان الذى يعتاد التصرف تحت الفكرة السلبية — فكرة الشر — يسميه سبينوزا Spinoza : عبدا .

ويعطى سبينوزا Spinoza ذلك الذى يتصرف تحت فكرة الخير (الحسن) اسم : الرجل الحر .

أناشدكم أن تدبروا أمركم جيدا وتناكدوا من أن تجعلوا من طلابكم رجالا أحرارا ، بأن تمودوهم التصرف تحت فكرة الخير والحسن ، ما استطعتم وما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

عودوهم أن يقولوا الحق ، ليس بوساطة أن تبينوا لهم شر الكذب بقدر ما تثيرون فيهم تحمسا للشرف والصدق ونزاهة القصد .

أفطموهم عن قسوتهم الفطرية ؛ بأن تنقلوا إليهم شيئا من خانكم أنفسكم وعظفكم الايجابى وفهمكم البصير لمناجى الحيوان الباطنية للسرور . وفى الدروس التى تطالبون رسميا بالقائها عن الآثار الضارة للخمر فليكن تركيزكم أقل مما تفعل الكتب عن معدة السكر ، وكليته وأعصابه ، وألوان البؤس الاجتماعى التى يتورط فيها . وركزوا أكثر على نعم التمتع بجهاز حى طوال الحياة محتفظا بمرونة الشباب والقوة ، وبأوعية دموية سليمة عذبة لم تشبها شائبة من المنبهات الضارة أو المخدرات . وإن أعظم منبه لها هو شمس الصباح الجميلة ، وهواؤه المنعش ، وندى الفجر اللذيذ هذه هى المقروبات والمنشطات والمنبهات التى تحفظ الشباب وتجدد الصحة وتقوى الجهاز الحى .

لقد انتهت الآن من أحاديثى هذه ، وإذا كان قد بدا لبعضكم أن

الأشياء التي قلتها بديهية أو تافهة فلن تبدو لكم كذلك ، أو على الأقل ستبدو بدايتها وتفاهتها أقل مما تبدو لكم الآن ، عندما تجدون أنفسكم في مدى عام أو عامين تلاحظون وتدركون الأحداث في قاعة الدرس على نحو يختلف عما كنتم تفعلونه من قبل — نتيجة لبعض المفاهيم التي حاولت أن أجعلها لكم أكثر وضوحا . ولا يسعني إلا أن أعتقد أن ادراككم للطالب كجهاز صغير حساس اندفاعي ترابطي رد فعلي ، قدرى جزئيا ، وحر جزئيا ، سيفضى الى ذكاء أحسن في كل مسالكة .

افهموا الطالب اذن كجهاز معقد صغير ، واذا استطعتم ، بالإضافة الى ذلك ، أن تنظروا اليه نظرة ايجابية وتحبوه أيضا فستكونون في أحسن وضع لتصبحوا أكمل معلمين وأعظم مربين .